الشباب الجامعي بين هشاشة عادة القراءة وطغيان عادة المشاهدة

أ /سلطان بلغيث

أستاذ مساعد مكلف بالد روس قسم علم الاجتماع

المركز الجامعي الشيخ العربي التبسي،تبسة،الجزائر

مـــلـــخص

لا يخـــتلف اثنان حول الأهمية التي يكتسيها عنصر الشباب في المجتمع،فهو الطاقة الحيوية التي تدفع قاطرة التغيير الاجتماعي نحو غاياتها المنشودة،ولن يتأتى ذلك إلا بإحاطة هؤلاء الشباب بكل أسباب التوجيه السليم لتمكينهم من التفاعل مع متغيرات عصرهم بكل ثقة واقـــتدار. وإنه لمما يورث الحسرة والأسى أن تتبارى المجتمعات الأخرى في كل مجالات الـــتفوق والإبداع المعرفي في حين ما تزال أمة 'اقرأ' تشهد حالات من التراجع والخواء الثقافي مسجلة نتائج هزيلة على سلم القراءة العالمي.

وعلـــيه فالواجب يستحثنا لاستنفار جميع القوى من أجل بعث عادة القراءة لدى شبابنا ومحاصرة معضلة العزوف عن المطالعة وصناعة مجتمع قارئ يحسن استثمار المقروء في حل مشكلاته وتحقيق تطلعاته.

Abstract :

Unquestionably, youths are of great importance in society. they are the hidden power that pushes society for ward; but this cannot be realized, unless, they are bred correctly inordertofit changing circumstance.
This vital question has been they swept under the carpet in the Arab world. wile other societies are competing to achieve great inventions and discoveries, we are terribly backing according to international reports.
It follows from this that reading has be to be encouraged any young people and to be used actively in their life to come through problems and realize their hopes.

مقدمة:

لايختلف اثنان حول الأهمية التي يكتسيها عنصر الشباب في المجتمع، ولا غرو في ذلك فهو الطاقة الحيوية الفاعلة التي تدفع قاطرة التغيير الاجتماعي نحو غاياتها المنشودة، ولن يتأتى ذلك الابإحاطة هؤلاء الشباب بكل أسباب التوجيه السليم والتربية الخلاقة التي تجعلهم يتفاعلون مع متغيرات العصر بكل ثقة واقتدار، صامدين في وجه التيارات الفكرية التي تهب من كل حدب وصوب في عالم شديد الانفتاح وكثير المعلومات ومتعدد الأقطاب الفكرية،عالم لم تعد فيه جدلية المعرفة والإبداع حكرا على الكبار بل أضحى يصنعها الأطفال والشباب على حد سواء، ولاسيما مع التدفق الكثيف والمتسارع لمنتجات حضارة الصورة التي لم تعد تستثني أحدا، واضعة نصب عينيها زرع قيم وتوجهات جديدة تستجيب لطبيعة التطلعات الرامية إلى بناء ثقافة عالمية جديدة، ولاشك أن الشباب يندرج في صلب هذه الإستراتيجيةالتي ترتكز على ثقل وسائل الإعلام المرئية بما تتضمنه من إمكانات ومغريات في صنع منظومة ثقا فيةعالمية منمطة ومستنسخة عما تروج له القنوات الفضائية على الصعيد العالمي ، وهذه الدراسة محاولة

متواضعة للاقتراب من واقع تعاطي الشباب الجامعي مع ثقافة المرئي ، وثقافة المقروء، وما إن كان هناك تكامل أم تزاحم بين الثقافتين في التأثير على أفكار وقيم الأجيال الشابة في المجتمع ؟

1- مكانة الكتاب والقراءة في الثقافة العربية الإسلامية:

ظفر الكتاب في كل المجتمعات بمكانة مرموقة، وكيف لا وهو الزاد الفكري والمعنوي الذي يُشعر قارئه بنشوة لا تدانيها نشوة كما يجعل الكتاب القارئ يحس بأهميته الاجتماعية فقد عبر أحد الفلاسفة عن دور الكتاب في صنع عملية التواصل بين أفراد المجتمع بقوله :"إذا امتنعت عن القراءة ثلاثة أيام، لا أحسن محادثة الناس " وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الإنسان بحاجة مستمرة لصقل مواهبه بمزيد من المعرفة والقراءة والإطلاع.

لقد كان الكتاب عبر التاريخ البشري رافدا حضاريا مهما اغتنت منه العقول وصقلت به المواهب ومحورا تلتقي فيه كل مفاصل الحياة البشرية وسجلا أمينا يروي تاريخ الحضارات والشعوب، ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان ورشة للإبداع والتفوق والارتقاء فصناع الحياة وبناة الحضارة عرفوا بأنهم كانوا قراءا من الطراز الأول " فالحضارة الحية الناضجة المتفتحة هي المناخ الصحيح والملائم لإبداع الكتاب الذي يولد المعرفة، وهذا الكتاب شريان عظيم الأهمية يغذي الحضارة ويغنيها ويوفر لها أسباب الديمومة والغنى"[1] ويكفي تدليلا على أهمية القراءة في الإسلام أن أول آية نزلت من القرآن الكريم ابتدأت بكلمة 'اقرأ' ونسبة لذلك سميت الأمة الإسلامية بأمة 'اقرأ' وفي إطار برنامجه الرامي إلى القضاء على الأمية وتعميم القراءة بين المسلمين،جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فدية الأسير من المشركين تعليم عشرة من أبناء المجتمع الإسلامي.

ومما يؤكد المنزلة الرفيعة للكتاب في الثقافة العربية الإسلامية " أن الفضل ابن سهل قال للخليفة المأمون يوما عندما وقف في مكان يشرف على غوطة دمشق: ياأمير المؤمنين هل

رأيت في حسنها شبيها من ملك العرب ؟ يعني الغوطة .قال المأمون:بلى والله كتاب فيه أدب يجلو الإفهام ويذكي القلوب ويؤنس الأنفس أحسن منها."[2]

ونجـــد في التراث الأدبي العربي شهادتين لأديبين كبيرين تمجد كل منهما الكتاب وترفع مـــن شـــأنه كحامـــل للواء المعرفة وصانع للثقافة ومشيد للحضارة، وتبرز أهمية هاتين الشهادتين من كونهما تصدران عن علمين كبيرين من أعلام الأمة العربية الإسلامية وهما الشاعر أبو الطيب المتنبي، والناثر أبو عمروالجاحظ " ولذلك فهما تبرزان قيمة الكتاب في ثقافتـــنا وتسجلان تصريحين بارزين بأن المبدع الكبير قارئ كبير، وقد كان أبو الطيب المتـــنبي و أبـــو عمـــرو الجـــاحظ ظاهـــرتين قارئتين حقا. ويلفت الانتباه اتفاقهما في لفظ'جليس' وهو لفظ تتظافر فيه دلالتان: المؤانسة والإفادة"[3].

فالجـــاحظ الذي كان موسوعة لكل المعارف في القرن التاسع الميلادي يقدم وصفا رائعا للكتاب ويعتبره الناطق الرسمي الذي يتحدث عن الموتى ويترجم كلام الأحياء ، وتكمن أهمية هذه الشهادة من كونها تصدر عن شخصية تملكها شغف القراءة في العصر العباسي ،جالست الكتاب عن قرب وعرفت أسراره وخباياه.

أمـــا المتنبي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي فقد انفرد بشاعرية متميزة وعبقرية فذة صـــقلتها تجربة حياتية مفعمة بالقراءة والإطلاع المكثف على التراث العربي الغني ،وقد وجد المتنبي في الكتاب خير جليس وأوفى أنيس وأخلص صاحب وهذا ما يدل عليه أحد الأبيات من شعره يقول فيه:

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وفي موضع آخر نجد أحد الشعراء يتغنى بالقلم معتبرا إياه أمضى سلاح يمكن اشهاره في أوجه الخصوم،باعتباره الوسيلة الضرورية لتحصيل العلم والمعرفةحيث يقول:

إذا افتخر الأبطال يوما بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب مجدا ورفعـــة مدى الدهر أن الله أقسم بالقـــلم

والواقـــع أن ولع القراءة لم يكن موقوفا على فئة بعينها بل كان ظاهرة تكاد أن تكون عامة، فرجال السياسة رغم انشغالهم بإدارة شؤون الرعية ما فتئوا يتحينون الفرص لقراءة الكـــتب المفـــيدة الـــتي تغذي عقولهم بالأفكار النافعة ،أو الاستمتاع بمجالسة العلماء والشـــعراء والاســـتفادة من بعض قراءاتهم. "اعتزل محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الأديب فترة من الزمن في بيته،وأراد الجاحظ زيارته،فرأى خير هدية إليه يستصحبهامعه أن يهديـــه كـــتاب ســـيبويه إمـــام العربية، وتسلم الوزير الهدية فرحا مسرورا،وقال للجاحظ:والله ماأ هديت إلي شيئا أحب الي منه"[4].

بهـــذه الـــروح العلمية المثالية أحب أسلافنا القراءة وهاموا بها حتى كان ضياع الأموال والمكاسب أهون على أحدهم من ضياع الكتب أو تلفها." هجم الجنودمرةعلى دار ابن العمـــيد ... واشتغل قلبه بدفاتره وكتبه ، ولم يكن شيء أعز عليه منها،وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم... فلما رأى ابن العميد خازن مكتبته سأله عنها فأجابه:هي بحالها لم تمســـها يـــد،فسري عن ابن العميد، وقال لخازنه: أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخـــزائن فيوجد عنها عوض، وهذه الخزانة –أي مكتبته- هي التي لاعوض لها"[5].وقد مكنهم هذا الحب الشديد للكتاب وما يحتويه من كنوز ومعارف من الترقي في درجات التقدم حتى أصبحت بلاد المسلمين مزارا لكل طالب علم من أبناء الغرب الذين يعترف المنصفون منهم بأن مدارس المسلمين وجامعاتهم كانت رمزا يحتذى به في النبوغ المعرفي والســـبق العلمـــي.فهذاالـــباحث' كولر يونج' يدلي بشهادته في ندوة عن "أثر الثقافة الإســـلامية في الغرب المسيحي"قائلا: وبعد فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدَّين الـــثقافي العظيم الذي ندين به للاسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين داخل هذه الألف سنة ـــــ نســـافر إلى العواصم الاسلامية وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الاسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه. كل هذا يجب أن يمازج

الروح التي نتجه بها نحو الإسلام نحمل إليه هداياانا الثقافية والروحية، فلنذهب إليه إذن في شـــعور بالمســـاواة نؤدي الدَّين القديم. ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ما علينا بـــربحه، ولكننا سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب واعتـــراف بالجميل[6].ويؤكد هذا الاعتراف بأن الثقافة الإسلامية كانت جسرا متينا مر عبره الغرب إلى معرفة تراثه والاستفادة من النهضة العلميةالتي حققها المسلمون منذ ألف سنة في التأسيس للإقلاع الحضاري الذي يجني الغرب ثمراته اليوم،وعليه فمن باب عرفان الجمـــيل كما يقول 'يونج' وأن يرد الفضل لأهله دون نكرانه وذلك من شأنه أن يقوي أواصرالتبادل بين الغرب والإسلام.

"لقدكان الكتاب العربي والعالم الإسلامي قمة يتطلع إليها كل باحث عن المعرفة ابتداءا مـــن القرن الرابع الهجري ولمدة ثمانية قرون بعدها على الأقل. وهذاهو' الفونسو العاشر' ملك قشتالةيفخر بأن أساتذته من المسلمين، وأنه حين أنشـــأ جامعة سلمنكة في القرن 13فإنـــه أنشأها على نمط الجامعات الإسلامية، بل إنه أمر بترجمة الكتب العربية السائدة الاستخدام بين المتعلمين المسلمين لاستخدامها ككتب دراسية لطلاب جامعته"[6]

وهكذا كانت بلاد المسلمين بفضل شيوع حب القراءة وتنامي الإقبال على العلم رائدة دون منازع في التقدم المعرفي وأضحت البعثات العلمية تقصدها من كل حدب وصوب للتـــزود مـــن كنوز جامعاتها ومكتباتها الزاخرة بنفائس العلوم حيث تعتبر بحق مراكز إشعاع فكري وعلمي، ويذكر المستشرق الهولندي دوزي'R.DOZY' بأنه " في الوقت الذي لم يكن يوجد أمي في الأندلس كان لا يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القسس"[7].فهل يعقل أن يكون أسلافنا عظاما بهذه الدرجة ونكون نحن أقزاما إلى هذا الحد ؟

إنـــنا لن نبلغ مستوى حمل الأمانة وصيانة الوديعة التي حملها أجدادنا بكل اقتدار إلا إذا تحملـــنا مســـؤولياتنا كاملة واحتضنا الكتاب بما يحمله من أسرار عجيبة كما احتضنه

الأولـــون،وليس هذا فحسب بل يجب أن يكون تعطشنا للقراءة في مستوى تعطشهم أو يـــزيد، وأن ننشئ الأجيال على حب القراءة والتعلق بها حتى يشبوا على ذلك ،لأنه من شب على شيئ شاب عليه.

2- الكتاب وحصار التقنية:

تفيدنا أحداث التاريخ أن الكتاب كان عزيز المنال مما جعل القراءة والكتابة حكرا على الصـــفوات من المجتمع في الأديرة والكنائس وبلاط الحكام، فالأباطرة والساسة والكهنة ورجال الدين ظلوا لفترة طويلة من الزمن يتداولون الكتاب ويستخدمونه في مساجلاتهم الفكرية دون تمكن عامة الناس من الحصول على هذه الوسيلة التثقيفية المهمة،وقد يكون تـــوجس النخـــبة السياسية المستبدة من سريان تيار الوعي واليقظة الفكرية في أوساط الجماهير أحد العوامل المساهمة في تأخير انتشار الكتاب على نطاق واسع بين الناس.

فالكتاب على قلة أعداده آنذاك كان وافر الهيبة تذوب العيون من أجل تدوينه ومن أجل قراءته، وكأن الجميع ظل يسلي نفسه بالصبر انتظارا لإطلالة فجر الطباعة تلك الإنعطافة الفارقـــة في تـــا ريخ البشريةالتي حررت الكتاب من الاحتكار وجعلته عملة رائجة بين الـــناس"يومذاك لم يعد لزحفه حدود، وكلما زادت المطابع عددا زاد قوة وجرأة، دخل البـــيوت وتصدر فيها، و لم يعد يزل عن الأيدي ولا يغادر عيون الساهر أو المسافر ... وبلـــغ أوج قـــوته بعد أواسط –القرن العشرين- فجميع البشر- إلا الأميين – هم من عـــباده !، وما ابتكر الإنسان ابتكارا فرخ وتكاثر وتناسل كالكتاب ، فعلى الأرض منه الـــيوم مئات أضعاف ما عليها من البشر ! والمطابع تقذف منه دون انقطاع وكل لحظة بالمزيد."[8]

وقـــد أتاحت التطورات التكنولوجية التي شهدها العالم في السنوات الماضية فرصا كبيرة لانتشـــار الكتاب من خلال توفر الوسائل الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، وفي الوقت ذاتـــه فـــرض هذا العصر تحديات متعددة على الكتاب إذ لم يعد الوحيد على الساحة

الثقافية الذي يستأثر بإقبال القراء بل برزت إلى جانبه وسائل إعلامية أكثر جاذبية وتشويقا مثل الأنترنت والقنوات الفضائية التي نجحت في جذب عددا مهما من أبناء المجتمع للتعاطي مع محتوياتها.

وقد جاء في تقرير اليونسكو أنه في عام 1965 صدر في الوطن العربي5199كتاب، وأن هذا الرقم انخفض عام 1981الى 2850كتاب، وكان من المتوقع مع زيادة عدد السكان وارتفاع نسبة التعليم أن يرتفع عدد الكتب الصادرة في الوطن العربي إلى 10.000كتاب على الأقل. ويعزو تقرير اليونسكو المذكور هذا التدهور في حالة التأليف والنشر إلى أسباب عديدة أهمها دخول التلفزيون إلى البلاد العربية،وتراجع عادة القراءة لدى الأجيال العربية الجديدة وذلك بالإضافة إلى ارتفاع سعر الكتاب العربي بشكل مبالغ فيه(9).

كما تراجعت صناعة الكتاب الورقي، فهي لا تتجاوز 29 عنواناً لكل مليون نسمة عام 1991م مقارنة مع 726 عنواناً في البلدان المتقدمة، وحتى قراءة الصحف والمجلات وجميع الوسائل الورقية انخفضت؛ إذ لم تتجاوز حصة الفرد من استهلاك المطبوعات، في البلاد العربية، أكثر من نصف كغ للفرد سنوياً، في حين تصل هذه الحصة إلى 5،17كغ للفرد في البلدان المتقدمة.. في سورية مثلاً تراجعت صناعة الكتاب التي راجت في السبعينيات، و لم تتجاوز عام 1993، 598 عنواناً (وهو رقم كبير بالنسبة لسنوات أخرى)، لكنه ضئيل بالمقارنة مع بلدان حديثة التصنيع مثل ماليزيا التي تزيد في عدد السكان عن سورية بمقدار خمسة ملايين نسمة، لكن طبعت في العام ذاته3695 عنواناً(10).

وحسب ما ورد عن تقرير اليونسكو فإن الأطفال في العالم العربي يقضون سنويا 1000 ساعة، والطالب حتى يتخرج من الثانوية يكون قد قضى15000ساعة أمام التلفزيون، ويقضي المواطن العربي بوجه عام ما يزيد على 36% من وقته في مشاهدة

التلفزيون.ويحتل العالم العربي ذيل القافلة متورما بأعداد لاحصر لها من الأميين إذ تزحف نسب الأمية لتغطي على عدد المثقفين والمتعلمين،وإذا تحدثنا عن الأمية الإلكترونية فحدث ولا حرج فنسبة ضحاياها من الطلبة الجامعيين يتجاوز90% وفي عز جموح الثورة الإلكترونية وما تستوجبه من تطور معرفي فإن 54,7 % نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة في العالم العربي وهي أقل نسبة في العالم،4 كتب لكل 100,000 نسبة الكتب الصادرة سنوياً في العالم العربي. 52كتاباً لكل100,000 نسبة الكتب الصادرة سنوياً في الدول الصناعية.وتعكس هذه الأرقام شساعة الهوة بيننا وبين العالم المتقدم،غير أن ذلك لا يجب أن يثني من عزائمنا في توفير الأسباب الكفيلة بالخروج من بوتقة التخلف الثقافي واعادة الاعتبار لأمتنا كأمة تنفرد بإرث حضاري حافل بالأمجاد العلمية وبداية الطريق تنطلق من القراءة الواعية البصيرة لواقعناوإقالة عثراتنا استعدادا للمراحل القادمة.

3-واقع عادة القراءة لدى الشباب الجامعي:

فالقراءة نشاط ذهني مركز ، وهي أساس التحصيل المعرفي و الثقافي ،ومن هنا يرى بعض المربين بأن القراءة " يجب أن تأتي في مقدمة المواد الدراسية جميعها " .(11) وقد انتقل مفهوم القراءة من التصور التقليدي الذي اعتبرها على أنها إدراك بصري للرموز المكتوبة و التعرف عليها، إلى اعتبارها "عملية فكرية عقلية يتفاعل القارئ معها و يفهم ما يقرأ و ينقده و يستخدمه في حل ما يواجهه من مشكلات و الانتفاع بها في المواقف الحيوية ". (12) فالقراءة أصبحت مرتبطة بالعامل الوظيفي ، وهي لا تنتهي بانتهاء العمر الدراسي ،بل إن رسوخها في المرحلة الأساسية الأولى يضمن بقاء هذه العادة المحمودة مدى الحياة .

فالقراءة نشاط فكري يثير حركةدائبة في النفس فيصقل مواهبها ويذكي ملكاتها ويوسع مـــدارك الإنســـان وينمي فهمه لما يدور حوله من تحولات،لذلك ينصحنا أحد الشعراء والنقاد المرموقين بضرورة الإكثار من القراءة لأنها غذاء مفيد للعقل ودواء يقي الفكر من مـــرض الشيخوخة المبكر، ومن هنا يصر 'باوند' بأنه يجب أن نقرأ لنزيد من قوتنا،كل قـــارئ لابد أن يكون رجلا ديناميكيا مفعما بالحياة والكتاب إنما هو دائرة نور تقبع بين يديه[13].والقراءة اذن هي بوابة العلماء ذيعد الظفر بهذه العادة الحسنة أعظم منة وأفضل ميـــزة تبحر بالإنسان عبر مختلف أفانين المعرفةوتمكنه من اكتساب ثروة يتعلم من خلالها كيف يحيا حياة نموذجية مفعمة بالسعادة،وبالتالي فهي فن الحياة وفن العيش حيث يقول الروائـــي الفرنسي 'فيليب سولزر' بأنه لمعرفة القراءة يجب أن نعرف كيف نعيش.القراءة هـــي فـــن الحياة الرائع[14].ولاشك أن عادة القراءة تتربى في اللحظات الأولى والفترات الحساسة من حياة الطفل،لذلك يقع على عاتق الوالدين مهمة تعويد الأبناء على القراءة منذ الصغر حتى تصبح جزءا لا يتجزأ من حياتهم بعد ذلك،فالحياة الأسرية لما لها من دور في توجيه سلوك ومعاملات الأطفال وما تدين به من مثل ومعتقدات تؤثر تأثيرا كبيرا في تكوين ميول الطفل في المطالعة وتأصيل هذه العادة فيه،ومن الأحسن تنمية رغبة القراءة وحب الكتاب قبل الدخول إلى المدرسة لأن الطفل في البيت يتعلم الأخذ من الأشياء التي يصـــعب تخييرها،فإن كان الأهل قارئين ومحبين للمطالعة لابد وأن يعلق في ذهن الطفل ويـــتعلم حب الكتاب،وتجدر الإشارة إلى أنه لايمكن الحديث عن توفر نيةالقراءة وحب الإطـــلاع بمفردها لكي تنمو لدى شبابنا عادة القراءةبل هي جزء لايتجزأمن سلسلة من العوامل الأخرىالتي لاتقل أهميةفي بناء مجتمع قارئ.

إن عـــدد النســـخ وارتياد المكتبات واقتناء الكتب منها هو المؤشر الرئيسي للمطالعة في المجـــتمع، فـــلا تـــوجد في العالم الثالث مكتبات في الحدود الضرورية، كما ان المبالغ المخصصة لبناء وتحديث المكتبات محدودة وعادة ما تكون المكتبات عاجزة عن استقطاب

ذلك العدد من المثقفين في المجتمع، ويعود فشل المكتبات في هذا المجال في النهوض بدور خلاق وحقيقي في ايجاد وتحكيم عادة المطالعة في المجتمع وفي ايجاد قراء دائميين للكتب، ويعود هذا الفشل إلى انزواء المكتبات وانعزالها عن المجتمع، وهذا ما يفقدها دورها المهم (13).

تؤكد مختلف الدراسات الميدانية أن القراءة تتراجع في العالم العربي فاسحة المجال لزحف وسائل الإعلام السمعية البصرية،ولم يعد الأمر يقتصر على عامة الناس بل تعدى ذلك ليشمل الفئات الاجتماعية التي يعد الكتاب مادة أساسية في عملها مثل الطلبة والمعلمين والفئات المثقفة، وإذا رجعنا لاستقراء آراء المعلمين والأساتذة في مختلف المستويات التعليمية. فسنجد أن هناك شبه إجماع على أن غالبية الطلبة والتلاميذ لا يعتنون بالقراءة إلا في حدود المناهج والكتب المقررة، وأن حصيلتهم المعرفية والثقافية هزيلة وفي تراجع مستمر. وعليه فبغض النظر عن عدم وجود احصاءات علمية حول نسب ومستويات القراءة في العالم العربي، إلا أن هذه المعطيات المذكورة، من ارتفاع نسب الأمية وتراجع حركة النشر، لا تترك مجالاً للتأكيد أو للحديث عن ظاهرة العزوف عن القراءة في العالم العربي. وأن هذه الظاهرة آخذة في الانتشار والتوسع، تدعمها أسباب داخلية اقتصادية وسياسية واجتماعية، وأسباب خارجية يمكن اعتبار العولمة الثقافية وانتشار وسائل البث الفضائي من أهمها(14).

أشارت دراسة إحصائية أجرتها مطبوعة متخصصة ونشرتها في جزءين على 600شخص من سكان بيروت وضواحيها أن الجمهور اللبناني يهتم بمشاهدة البرامج التليفزيونية والاستماع إلى ما تقدمه الإذاعات اكثر من اهتمامه بالقراءة(14).

ومع التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية التي طرأت، ظهرت هوة ثقافية بين الدول المتقدمة والدول العربية. فنسبة الأمية في عالمنا العربي تزيد على 40%. ويتناقص عدد الكتب المؤلفة باللغة العربية والمترجمة عاما بعد عام. إضافة

إلى نقص المادة الصالحة للقراءة وقلة الجمهور القارئ. فقد أظهرت نتائج استبانة طبقت علـــى طلاب إحدى الجامعات العربية أن 20% من الطلاب لا يقرأون مطلقاً باستثناء مقـــرراتهم الدراسية، و20% يقرأون مراجع في مجال اختصاصهم فقط، و26% يقرأون أقـــل من ساعة يومياً، ونحو 35% يقرأون بين ساعة وساعتين، و2% يقرأون أكثر من أربع ساعات يوميا[15].

وفي دراســـة أجـــريت على عينة من المعلمين الجزائريين أقر(41.37%)بأن عادة القراءة تراجعت لديهم بسبب تأثير مشاهدة الهوائيات المقعرة،في مقابل (8.04%) قالوا أن عادة القـــراءة زادت لـــديهم . وتعكس هذه النتائج حجم التأثير الذي ينفرد به البرابول على حساب وسائل الإعلام الأخرى،حتى العريقة منها مثل الكتاب[16].

وقـــد كشفت دراسة أجريت في الوسط الجامعي الجزائري أن أغلبية الطلبة يعزفون عن القـــراءة والمطالعـــة، وأعـــاد الطلبة المبحوثين سبب عدم الإقبال على القراءة إلى غياب الكـــتب(44.48%)،في حين اشتكت نسبة(24.40%) من غلائها،وذكر(31.90%) أنهم لا يجدون الوقت للمطالعة[17].

والشيء المثير للقرف والأسى هو أنه في الوقت الذي تتصاعد فيه وتيرة القراءة والمطالعة لـــدى الشـــعوب المتقدمة تتراجع معدلات القراءة في مجتمعاتنا بشكل مريع.إن المطالعة بدأت تختفي في الجزائر و لم تبق كما كانت عليه لأنها عملية يبدأ الفرد في مما رستهامنذ المدرســـة الابتدائـــية- بـــل في الأســـرة قـــبل ذلك- وتستمر حتى الدراسات العليا والجامعية،لكن يلاحظ أن النظام التعليمي لا يشجع على المطالعة وهو فعلا ماعشناه حتى كـــاد هـــذا الوضـــع أن يصبح عاديا بالرغم من أن علاقة الشباب الجزائري متأزمة مع الكتاب عندما نعلم بأن هناك بعض الطلاب الذين أكملوا دراساتهم العليا دون أن يقرءوا ولو كتابا واحدا[18].

ولايغـــرنك كثـــرة عدد الطلبة المتهافتين على المكتبة فهؤلاء يصدق عليهم المثل القائل: تســـمع جعجعة ولا ترى طحينا.فأغلبهم يفدون إلى المكتبة لا من أجل المطالعة بل من أجـــل الاسترسال في الحكايات والقصص الخيالية والعاطفية؟وقتل الوقت في الكلام غير المفـــيد ناهـــيك عـــن جـــو الضـــجيج والفوضى الذي لا يتيح فرصة القراءة الهادئة والهادفـــة،ونادرا ما يلتفت بعض الطلبة إلى الكتاب وفي الغالب يكونون مضطرين للوفاء بالتـــزام دراسي أو بحثي أو قبالة امتحان مصيري فهي إذن قراءة مناسباتية ينتهي مفعولها بانـــتهاء الغـــرض الذي أعدت من أجله.ولذلك نجد أن الإعارة تبلغ ذروتها في فترات الامتحانات وإعداد مذكرات التخرج والتكليف بالواجبات ثم ماتلبث أن تتراجع بنسب هائلة وكأنها تشهد عملية سقوط حر، وفي ذلك مؤشر على تذبذب عادة المطالعة لدى الطالب الجامعي وعشوائيتها وعدم استقرارها وأبلغ دليل على ذلك أن الطالب إذا سئل بعد ساعة من أداء هذا الواجب قد لا يفلح في استذكارماقرأه قبل ذلك.بمعنى أن عادات الإســـتذكارتكون في الغالـــب مركزة استجابة لحاجات موسمية عابرة، وليست موزعة بحـــيث تستطيع الذاكرة الاحتفاظ بها لمدة طويلة وتوضيفها في أكثر من موقف،وبتعبير آخـــر حيـــنما تتخمر هذه المعلوةمات في ذهن القارئ تصبح جزءا من تفكيره وليست جسما غريبا عنه يسارع بلفظه بمجرد انتهاء الغاية من تحميله في الذاكرة.

ومـــع ذلـــك تأكد أن أول تحليل لنقص مستوى القراءة في بلادنا، ستسمعه من محللي التـــنظير الجاهزين للوم الآخرين، هو سيطرة الإنترنت والفضائيات على وقت الشباب، بينما الأرقام تقول عكس ذلك، ففي الخليج مثلا أعلى نسبة بلغت لمستخدمي الإنترنت في الإمارات لم تتجاوز 36%، وفي السعودية بلغت أقل، ودول الخليج 12%، كما أن هـــذا التحلـــيل الجاهز، لا يفسر لك لماذا لم تتضرر مجتمعات مخترعي هذه التقنية، التي تســـتخدمها بأعلى نسبة في المعدلات العالمية. ولماذا ينجح سوق كتاب تتجاوز صفحاته الألف ويطبع بالملايين؟.

وتقـــول دراســـة للـــــ"يونيسيف" إن الشباب المراهق يقبل على المسلسلات الأجنبية والرياضـــة. وتقـــول: "إن أكثـــر الـــبرامج التي تلاقي استحسان المراهقين هي الأفلام والمسلسلات وبرامج المنوعات والفيديو كليب، تليها بعض البرامج الأخرى. وهم نادراً ما يشاهدون النشرات الإخبارية أو أية برامج دينية أو ثقافية جادة".[19]

ساعدت الدراما التلفزيونية على الحفاظ على نسبة الأميّة الأبجدية كما هي، وزادت من نســـبة الأميّة الثقافية، بحيث أصبحت غالبية المتلقين تسعى إلى المشاهدة لا القراءة، وإلى إزجـــاء الـــوقت لا إلى إذكاء الذوق، وتتحاشى مشقة القراءة، وتستسلم لخدر شاشة التلفـــزيون اللذيـــذ، لا لقلـــق صفحة الكتاب. ونحن لا ننكر أن عدد المتلقين للدراما التلفـــزيونية في العـــالم أجمع أكبر بكثير من عددهم بالنسبة للرواية وباقي الفنون الأدبية الأخـــرى. ولكـــن "العـــالم الآخر" لم يتخذ من الدراما التلفزيونية بديلاً للفنون الأدبية الابداعية الأخرى كما حصل في العالم العربي، وانما أضاف الدراما التلفزيونية – التي هي فـــن رفيع أيضاً في"العالم الآخر" – إلى باقي الفنون الأخرى التي تربي الذوق العام تربية رفيعة، وترقى بهذا الذوق إلى الأعلى، وتقدم للمشاهد المعرفة الصحيحة، فيما لو علمنا أن كـــتّاب الدراما التلفزيونية في"العالم الآخر" هم من صفوة المثقفين والمبدعين، حيث الجمهـــور المتلقي المثقف الذي لا يرضى ولا يُقبل إلا على الجيد المتقن، في ظل منافسة حـــادة وشرســـة بين هؤلاء المبدعين لـــ "فن" الدراما التلفزيونية التي لم تصل إلى حد (التأفـــيُن والأفْيـــنة) كما هو حاصل في العالم الغربي، وحيث الخيارات الثقافية الجيدة الأخرى متوفرة كالسينما والمسرح وغيرها[20].

إن نظرة فاحصة إلى فضائياتنا العربية ومدى الحيز الذي تحتله قضايا الشباب فيها يصيب الغيورين بخيبة أمل. فنظرة هذه المحطات إلى قضايا الشباب نظرة استهلاكية وسطحية لا تتصور قضايا الشباب – في أغلب طروحاتها – خارج الموسيقى والرقص والفن والرياضة وما شابه ذلك، وبرامج تليفزيون الواقع تشهد بذلك، وليست "ستار أكاديمي" وحدها

التي تغرد نشازا في هذا المضمار وإنما هي حلقة في سلسلة يمكن أن تكون مفرغة أي لا نهاية لها تتعامل مع الشباب وعقولهم وتنظر إليهم تلك النظرة الاستهلاكية.. بينما الحقيقة أن للشباب قضايا حقيقية غائبة عن اهتمامات تلك الفضائيات.[21].

وهكذا ينشر التلفزيون والكمبيوتر العزوف عن القراءة بين أناس كثيرين لا يرغبون أصلا في قـــراءة أي شـــيء مفصـــل وطـــويل ويحـــتاج الى تركيـــز وعمق،فقط ايجاز جمل قصـــيرةجدا،قفز بين القنوات،بهجة فورية،صور سريعة الحركة،إثارة دائمة ،فترات انتباه أقصر،إنه عالم أكثر شروره أن تكون مملا[22].

4- ما لسبيل لإعادة بعث عادة القراءة من جديد في المجتمع الجزائري؟

إن مجتمعا لا يقرأ هو مجتمع في حكم الميت إن لم يكن قد مات بالفعل،لأن القراءة تمثل الـــزاد الذي يتغذى به العقل ويواجه من خلاله مستجدات الحياة ومتغيرات الواقع،فهي مفـــتاح البوابة السحرية التي يلج من خلالها القارىء الى فضاء رحيب من العلم والمعرفة متخلصا من الأمية والخواء الثقافي إلى غير رجعة.وإذا كان عصرنا يزخر بألوان شتىمن وسائل التثقيف والترفيه التي قد تكون أكثر اغراءا من الكتاب لاسيما لدى الفئات الشابة من مجتمعنا،فماهي الأساليب الكفيلة بإعادة توطيد العلاقة بين الشباب والقراءة باعتبارها الـــزاد الذي لاعوض عنه، والكتر الذي لا يحسن تجاهل ما يحويه من فوائد ثمينة وخاصة للأجيال الحاضرة ؟

لاشك أن هناك العديد من الآليات التي إن حرص الشباب على اتباعها ستؤدي إلى بلوغ المـــرام واعادة وشائج القربى بين الكتاب كخير جليس وقرائه ومن هذه الأساليب نذكر مايلي:

- تـــثمين قيمة الكتاب ككتر معرفي وذاكرة خارجية للأجيال وتقديمه كهدية في المناسبات السارة والاحتفالات.

- ❖ توعية أبناء المجتمع بأهمية الوقت كقطعة تقتص من حياتهم ولذلك يحسن إنفاقه في قراءة ما هو مفيد لصاحبه في الدنيا والآخرة،فالمعروف أن الثقافة الإسلامية تعتد بالوقت كمنتج حضاري وتعتبره بمثابة الحياة ذاتها.فالوقت كنز ثمين ومعدن نفـــيس وآفة الآفات في ضياعه سدى ويكفي الوقت أهمية أن المرء يُسأل يوم القيامة عن عمره فيما أبلاه.
- ❖ الإكثار من المعارض والصالونات المروجة للكتاب في مختلف أرجاء الوطن
- ❖ اســـتغلال بـــرامج التلفزيون وما تملكه من تأثير على فئة الأطفال والشباب في تغذيـــة اتجاهاتهم القرائية وتعزيز شغف الإقبال على الكتاب في نفوسهم وتنمية عـــادة المطالعة لديهم.وهكذا يكون التلفزيون بمثابة مدرسة تربوية هادفة تؤدي دورا إيجابيا في تنمية الوعي المعرفي والثقافي لدى الشباب وتعميق وعيهم إزاء التفاعل مع التلفزيون من خلال بث ثقافة المشاهدة الإيجابية لديهم وليس كما يحـــدث اليوم حيث انقلبت أغلب الفضائيات العربية إلى ملاهي تمتص أغلب أوقات الشباب وتهدر حياتهم فيما لا يجدي ولا يفيد مما يجعلهم فاقدين للحس الحضاري غير آبهين بقتل أنفسهم وليس بقتل الوقت.
- ❖ إقامـــة المكتـــبات العامـــة في مختلف المرافق التي يقصدها الناس كالمستشفيات ومجـــالس الأحياء والبلديات والمطارات والمدارس- خاصة-وتعميم فكرة إعارة الكتاب بأثمان رمزية.
- ❖ تنظيم القوافل الثقافية على مدارالسنة واستغلال فترات الاستجمام لدى الناس لتقـــريب الكـــتاب إلـــيهم وتعريفهم بجديد إصداراته. واستثمار أوقات فراغ الشـــباب بمـــا يخـــدم تنمية شخصيتهم من خلال زيادة عدد الأندية الرياضية والاجتماعـــية والثقافية وتفعيلها ،والتأكيد على دور المدرسة والجامعة في ايجاد الوعي الثقافي وتنشيط الحياة العلمية وجعلها اكثر ديناميكية واشراك الشباب في

الحـــوارات والنشـــاطات المختلفةوتحسيســـهم باهمية القراءة في صناعة الحياة الناجحة.

- إقامـــة المســـابقات في النوادي وفي الشواطئ للمصطافين ورصد جوائز تكون عـــبارة عـــن كتب لهم ولأبنائهم قصد تشجيعهم على القراءة.وانشاءهيئات وتنظـــيمات وبـــنوك تتولى الاهتمام بترقية عادة القراءة في المجتمع كأن تؤسس رابطة أصدقاء الكتاب، وبنك القارئ النهم...الخ.
- دعم الكتب والإصدارات التي تهتم بأدب الأطفال،قصد غرس حب القراءة في نفوســـهم مـــنذ الصغروتطبيعهم على ألفة الكتاب ومجالسته كصديق وفي،وأن تشـــجع حصص القراءة الحرة في المدارس ونوادي القراءة وترصد جوائز قيمة للمتفوقين تحفيزا على التنافس في هذا المجال التربوي الهام.
- رصد ميزانية من قبل الأسر تخصص لشراء الكتب المفيدة لأن اتجاهات الوالدين الإيجابية إزاء الكتاب من شأنها أن تشجع الأبناء على الإقتداء بهم والسير على خطاهم،وترشيد نفقات الطلبة بحيث يتيسر لهم تأمين شراء الكتب- الضرورية لصقل معارفهم- من منحهم الدراسية.

الخاتمة:

إن القـــارئ لتاريخ التطور والمستقرئ لمسيرة النهوض في حياة المجتمعات والأمم يجد أن لحظـــات التألق ومعانقة المجد كانت مرتبطة بولع معرفي منقطع النظير،ولم ينبئنا التاريخ بأمة تطورت من العدم أو صنعت عزها الثقافي بالأحلام والأماني.وإنه لمما يورث الأسف والحســـرة أحيانا أنه في الوقت الذي تتبارى فيه المجتمعات الأخرى في مجالات الكشف والإبـــداع محققة الإشباع المعرفي في أغلب جوانب الحياة،ما تزال أمة —اقرأ-تشهد حالة من التراجع المعرفي والخواء الثقافي مسجلة نتائج هزيلة على سلم القراءة العالمي.

ومـــن ثمـــة فالواجب يحتم على كل غيور في هذه الأمةأن يعمل باتجاه الإرتقاء بالوعي القرائـــي وترسيخ عادة الشغف بالمطالعة لدى كل الفئات ولاسيما فئة الشباب باعتباره مـــرآة المجـــتمع ومستقبله الواعد.ومع إدراكنا بأن المسافة التي تفصلنا عن العالم المتقدم ليســـت يســـيرة وأنهـــا ماضية في الاتساع يوما بعد آخر،فإنه لا مفر لنا إلا المزيد من التشـــجيع على القراءة النافعة التي تصقل مواهبنا وتذكي ملكاتنا وتسمو بأذواق شبابنا وترتقي بحسهم الحضاري.

بهذا المنظور الحضاري الراقي لابد أن نتناول ظاهرة القراءة في المجتمع الجزائري كي نحيط بهـــذه المشـــكلة بكـــل أبعادها وإفرازاتها ونستلهم الخطوات المنهجية والعلمية الواجب اتباعهالمعالجةمعضلة العزوف عن القراءة،وصناعة مجتمع قارئ يحسن توضيف القراءة في حل مشكلاته والتأثير في حياته بما يحقق آماله وتطلعاته.

المصادر والمراجع

1- محمد مهدي شمس الدين، الكتاب والحضارة الإسلامية، مجلة الكلمة ع س3،منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت،شتاء، 1996 ،ص9.

2-محمد أمين أبو بكر،هل نقرأكما يقرأ الآخرون، مجلة الأمن والحياة ع192 ،أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض ، 1999 ،ص67.

3- مبروك المناعي،القراءة حدثا معرفيا ونشاطا ابداعيا في دور الكتاب في تركيز مجتمع المعرفة، منتدى الألسكو ، تونس ،2004،ص27.

4- مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا،الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، دار الصديقية الجزائر،1980،ص219.

5- نفس المرجع ، ص220-221.

6- - أحمد فؤاد باشا، الإسلام والعولمة.. صراع أم حوار؟!
http://www.balagh.com/islam/z003zncg.htm;p07.

6-أحمدمحمدعيسى ، الكتاب والمكتبة في حضارة الإسلام، مجلة منارالإسلام ع4 س2 ،وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف الإمارات العربية المتحدة، أبريل 1977،ص 108.

7-The cam bridge medeival history.iii. 434. histoire des musulmansd.espagne.ii.184.

8-شاكر مصطفى ، هل نعلن نعي الكتاب ؟ العربي ع439، وزارة الإعلام دولة الكويت،جوان 1995 ،ص29.

9- جريدة الهدف الكويتية 1982/7/30

10- القراءة وثقافة الشباب
http://www.damascusonline.com/48/opinion/reading2.htm

11- لوسيل ف فارجو : المكتبة المدرسية : ترجمة د محمد الفراوي ، القاهرة ، دار المعرفة . 1970 ص 121

12- عبد العليم إبراهيم : المرجع الفني لمدرس اللغة العربية ، نقلا عن حسن محمد عبد الشافي : المكتبة المدرسية و دورها التربوي، مؤسسة الخليج العربي . ط 2 . 1987،ص 50.

13- بركة بسام ،لماذا نقرأ؟ الصورة التي تضيع والكلمة التي تبقى،العربي ع518، وزارة الإعلام الكويت،جانفي 2002،ص26.

14- عقيل المسكين وعبد العزيز آل عبد العال،لماذا نحن مجتمعات لا تقرأ ؟
http://www.kalema.net/articles/21a_6.html;p01.

14- بركة بسام ،مرجع سابق ،ص25.

15- أزمة النشر في العالم الثالث
http://www.darislam.com/home/alfekr/data/feker1112/30.htm

16- اللبنانيون لا يقرأون ,, ويفضلون المشاهدة والسمع,,!!
p://www.alwatan.com/data/20030706/index.asp?content=culture

17- ريما سعد الجرف،ماذا يقرأ شبابنا في عصر العوامة
http://www.arabicwata.org/Arabic/The_WATA_Library/Research_Papers_and_Studies/Excerpts_from_Papers/p03.2004/april/research6.html

18- بلغيث سلطان ،جمهور المعلمين والبرابول رسالة ماجستير قسم علم الإجتماع جامعة قسنطينة، 1999 ،ص204.

19- بلغيث سلطان وقماط بوعلام،عوامل عزوف الطالب الجامعي عن المطالعة،مذكرة لنيل شهادة الليسانس ،قسم العلوم الإجتماعية والإنسانية جامعة ورقلة،2000،ص45.

20- تواتي نور الدين،الكتاب الجامعي،رسالة لنيل شهادة الماجستير قسم الإعلام والاتصال جامعة الجزائر،1992.

21-الفضائيات وقضايا الشباب.

http://www.islamweb.net/ver2/Archive/readArt.php?lang=A&id=87495;p01.

22- النابلسي شاكر، الفضائيات ودورها في الثقافة العربية.

http://66.102.9.104/search?q=cache:9sboNYB2kk4J,p03

23- الفضائيات وقضايا الشباب ،مرجع سابق ،ص01.

24- العسكري سليمان ابراهيم،إعلام العولمة ،قيم جديدة أم انكفاء على الذات؟ العربي ع517، وزارة الإعلام الكويت ،ديسمبر 2001،ص12.